

رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته لمحمد خليفة حسن

سمير عبدالحميد إبراهيم

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

حسن ، محمد خليفة / رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته
١٠ ط ١ - القاهرة : المؤلف ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

صدر كتاب «رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته» لمحمد خليفة حسن ، الأستاذ بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة العام قبل الماضي ١٤١٦ هـ في القاهرة ، والكتاب كما ذكر مؤلفه «محاولة» لوضع رؤية عربية لتاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته في مواجهة الرؤى الأجنبية الوافدة التي شكلت تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته على هواها ووفق مصالحها وأيديولوجياتها .

والمؤلف يدعو المهتمين والمتخصصين في التاريخ القديم إلى ضرورة التعاون لمواجهة النظريات الغربية عموماً والنظرية اليهودية الصهيونية على وجه الخصوص لوقف عمليات استلاب تاريخ وحضارة الشعوب العربية قديماً وحديثاً في وقت تحولت فيه مادة التاريخ في مدارس بعض البلدان العربية إلى مادة اختيارية !! .

وهكذا كان الدافع الأساس لكتابة هذا الكتاب جذب اهتمامات المتخصصين في مجال تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته ، بعد أن سيطر المؤرخون وعلماء الحضارات في الغرب سيطرة تامة على مجال التأريخ لشعوب الشرق الأدنى القديم مما أدى إلى ظهور عدة نظريات غربية تفسر تاريخ المنطقة وحضارتها من منظور غربي خالص . فكانت النظريات المسيحية التي تقسم التاريخ العام للبشرية إلى ما قبل المسيح عليه السلام وما بعده . أما النظرية اليهودية الصهيونية فهي النظرية الغالبة في مجال كتابة تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته ، وكان الهدف من هذه النظرية تأصيل الوجود اليهودي في فلسطين وتحجيم الوجود الفلسطيني وتهويد تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وتشويه المادة التاريخية ، ومحاولة ربط الإسرائيليين القدامى بالإسرائيليين المعاصرين في رباط تاريخي يحقق لهم الهيمنة والسيادة قديماً وحديثاً .

وقد أصدرت نواثر المعارف والموسوعات التي هودت الشرق الأدنى القديم والتي جعلت من فلسطين بلداً يهودياً خالصاً طوال تاريخه القديم والمسيحي والإسلامي والحديث ، وتم طمس الهوية العربية للمنطقة ثم طمس هويتها المسيحية والإسلامية في العصرين المسيحي والإسلامي ، وصار العرب من المنظور الغربي ليس لهم تاريخ قديم أو حضارة قديمة تستحق أن توضع في مصدر يتحدث عن المصريين والبابليين والآشوريين والفرس واليونان والرومان ، في الوقت نفسه الذي تُخصّص فيه أبواب عن العبريين والإسرائيليين واليهود رغم أنهم بلا منجزات تاريخية أو حضارية في التاريخ القديم .

الأدنى القديم وحضارته وأثبت عروبة الشعوب (السامية) القديمة من خلال عرضه لأسس الوحدة الثقافية لشعوب المنطقة العربية داخل الشرق الأدنى القديم ، وهنا استخدم تجاوزاً كلمة السامية في محل العربية ، ولخص هذه الأسس في وحدة الجنس والوحدة اللغوية ، والوحدة التاريخية الجغرافية ، والوحدة الدينية ، والوحدة الثقافية الحضارية .

والحقيقة أن المؤلف محمد خليفة حسن قدم رؤية جديدة بالاهتمام في كتابه الذي اشتمل على بابين تضمن كل واحد منهما أربعة فصول ، وحتى يُفصل فكرته أو رؤيته العربية لتاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته ناقش بداية غياب الرؤية العربية لتاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته ثم قدم نقداً واعياً للرؤية الغربية في كتابة تاريخ الشرق

تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، ولهذا بدا التاريخ العربي الإسلامي تاريخاً ممزقاً ومقسماً إلى عدة عصور مرتبة ترتيباً تاريخياً عشوائياً ، ولا يوجد لها رابط حقيقي من صميم التاريخ العربي والإسلامي ، يشد هذا التاريخ بعضه إلى بعض ليعطي في النهاية تاريخاً شاملاً وكاملاً للمنطقة العربية في تاريخها القديم وفي تاريخها الإسلامي .

ومن الأسباب أيضاً في التأثير على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب خلال القرنين الأخيرين دور الاستشراق ، فقد عمل الاستشراق من خلال الاستعمار على تقوية النزاعات الإقليمية من خلال القيام بكتابة تواريخ مستقلة للشعوب العربية ، وتشجيع المؤرخين العرب على تناول تاريخهم تناولاً محلياً إقليمياً .

ولا شك أن المنهج الاستشراقي في دراسة التاريخ العربي الإسلامي قد أثر على عدد كبير من المؤرخين العرب والمسلمين الذين انبهروا بالمنهج العلمي للاستشراق ، وبالنتائج العلمية التي تحققت وبالنظريات الفكرية التي تطورت ، أضف إلى كل هذا ، التخلف العلمي الذي أصاب العرب والمسلمين خلال القرون الماضية ، وهو ما أدى إلى عدم الاهتمام ، أو العجز في تتبع آثار التاريخ القديم ، فلم تتوافر المادة العلمية الكافية لإثبات أحداث التاريخ العربي القديم .

وقد نجح علماء التاريخ والآثار في الغرب في التعطيم على أخبار وآثار شبه الجزيرة العربية ، وعلاقاتها بالشعوب المحيطة بها من أجل فصلها تاريخياً وحضارياً عن هذه الشعوب .

* * *

كشف المؤلف في كتابه عن ملامح الرؤية النقدية الغربية في كتابة «تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته» ، فأوضح أن معظم الكتابات الخاصة بتاريخ الشرق الأدنى القديم تركز على دراسة التاريخ العربي القديم دراسة مستقلة عن تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وكأن شبه الجزيرة العربية لا تمثل جزءاً من الشرق الأدنى القديم ، والسبب الحقيقي وراء هذا الأمر هو الرغبة في تشويه

ورركز حديثه بعد عرضه للموقف العربي والإسلامي من الفكر الأسطوري في الشرق الأدنى القديم على مكانة العرب في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته : كيف كانت علاقة العرب بالشرق الأدنى القديم ؟ ، والهجرات العربية القديمة ، وتكوين الشعوب العربية (السامية) ثم اللغة العربية ونشأتها - ثم ناقش بالتفصيل علاقة الأدب العربي القديم بالأدب السامية ، وتفاعله مع الآداب السامية ، كما ناقش قضايا الأدب العربي القديم في ضوء آداب الشرق الأدنى القديم سواء قضية تسميته قبل الإسلام بالأدب الجاهلي ، أو قضية التأريخ له ، هذا بالإضافة إلى التأثير العربي القديم في آداب الشرق الأدنى القديم ، وجوانب أخرى تساعد في فهم الأدب العربي القديم من خلال استقراء تاريخ الشرق الأدنى القديم .

أفرد المؤلف الباب الثاني لمناقشة أربعة موضوعات في أربعة أبواب ، الموضوع الأول يتناول العرب في شبه الجزيرة العربية ووضعهم الديني قبل الإسلام ، والأوضاع السياسية والدينية في جنوب شبه الجزيرة العربية ، والموضوع الثاني يتناول العرب وبلاد الحبشة : الأصل العربي للأحباش ، والوضع الديني واللغة الحبشية والأدب الحبشي . أما الموضوع الثالث فيتناول علاقة العرب بشعوب بلاد ما بين النهرين . ويناقش المؤلف هنا الأوضاع السياسية بالإضافة إلى الوضع الحضاري والديني والتراث الأسطوري ، وأخيراً يتناول في الموضوع الرابع العرب وشعوب المنطقة السورية أي : الكنعانيون والفينيقيون ، الآراميون والعبريون وأخيراً الفلسطينيين حيث أوضح إهمال التاريخ الفلسطيني القديم بواسطة مؤرخي العرب ، وبين وصف العهد القديم للتاريخ الفلسطيني وقدم أدلة عديدة على عروبة فلسطين .

يرجع المؤلف أسباب غياب الرؤية العربية الإسلامية لتاريخ الشرق الأدنى وحضارته إلى انقطاع الاستمرارية في الوعي العربي للتاريخ ، وعدم القدرة على الربط بين الماضي والحاضر في تاريخ الأمة العربية والفشل في إيجاد وتحديد العلاقة التاريخية والحضارية الرابطة بين

التاريخ العربي القديم والتحقيق من شأن الوضع الحضاري للعرب قبل الإسلام ، وإنكار دور العرب في تكوين الشعب السامي في بلاد النهرين وغيرها .

وركزت الدراسات الغربية على تاريخ الإمبراطوريات في الشرق الأدنى القديم مع إهمال الدول التي ظهرت فعلاً في شبه الجزيرة العربية ، وبعضها من أقدم النظم الحكومية في منطقة الشرق الأدنى القديم مثل دول معين وسبأ وحمير في الجنوب ، ودولة المناذرة والغساسنة في الشمال ، بالإضافة إلى المراكز المهمة المنتشرة في شمال شبه الجزيرة ، وعلى ساحلي البحر الأحمر والخليج العربي وعلى بحر العرب أو المحيط الهندي ، ويرتبط بهذا أيضاً تأثير الفكر الاستعماري الحديث على عقلية مؤرخي الشرق الأدنى القديم ، ودارسي حضارته في الغرب ، فكان من أهم النظريات التاريخية التي تم تطويرها وجعلها من المنهج الثابت في دراسة تاريخ الشعوب العربية السامية القديمة البعد عن اعتبار شبه الجزيرة مركزاً حضارياً لشعوب المنطقة السامية والبحث عن مراكز جاذبية بعيدة عن هذا المحور الرئيس لوحدة شعوب المنطقة السامية قديماً ، ونتج عن هذه النظرية اعتبار العرب شعباً لا قيمة له في التاريخ القديم ، وليس له وزن سياسي أو حضاري . تاريخهم غامض مجهول ، أو هكذا شاء له المؤرخون المعاصرون في الغرب ، الذين تجاهلوا بلاد العرب ، وأهملوا عن قصد في عمليات البحث التاريخي الأثري في شبه الجزيرة العربية ، كما ظهرت نظرية الوطن السامي الأول واللغة السامية الأم ورغم وجود أدلة على أن بلاد العرب هي مهد العرب الساميين الأوائل وأن العربية هي اللغة السامية الأم إلا أن مؤرخي الغرب خلال ق ١٩ و ٢٠ الميلاديين ، طرحوا هاتين المسألتين من أجل التشكيك في القيمة الحضارية والتاريخية للعرب في التاريخ القديم .

انتقل المؤلف بعد ذلك إلى قضية مهمة تتعلق بعروبة الشعوب «السامية» القديمة ، فذكر أن مؤرخي الغرب وبخاصة المستشرقين منهم اتجهوا إلى اختيار «المنطقة السامية» للدلالة على ما نُسَمِّي نحن بالمنطقة العربية في التاريخ القديم ، وهي التسمية الصحيحة التي يتجنبها

المؤرخون عامة والمستشرقون منهم على وجه الخصوص في محاولة منهم للتخلص من كل ما يشير إلى دور خاص للثقافة العربية في تكوين شعوب المنطقة العربية في الشرق الأدنى القديم ، واختاروا كبديل للتسمية (عربي) التسمية (سامي) نسبة إلى سام بن نوح المذكور في التوراة والتي اعتمد عليها كثير من المؤرخين في تقسيم السلالات البشرية حسب أبناء نوح ومناطق استقرارهم بعد الطوفان. وقسم المؤلف سكان منطقة الشرق الأدنى القديم إلى مجموعتين من الشعوب ، المجموعة الأولى مجموعة الشعوب الداخلية التي تكوّن قلب الشرق الأدنى القديم وتتوحد فيما بينها بمجموعة من العوامل منها الوحدة الجنسية، والوحدة اللغوية، والوحدة التاريخية ، والوحدة الدينية والوحدة الثقافية الحضارية . وقد شرح المؤلف هذه العناصر كلاً على حدة ، وهذه المجموعة تشتمل على العرب في شبه الجزيرة العربية وعلى شعوب المنطقة السورية ، وتشمل مجموعة الشعوب الداخلية أيضاً الشعوب التي سكنت منطقة النهرين بداية بالأكديين الذين انقسموا فيما بعد إلى البابليين والآشوريين ، وقد اصطلح علماء حضارات الشرق الأدنى على تسمية شعوب هذه المجموعة الداخلية باسم مجموعة الشعوب السامية والمؤلف يسميها باسمها الحقيقي وهو مجموعة الشعوب العربية لأسباب أوضحها في كتابه .

أما المجموعة الثانية فهي مجموعة من الشعوب المحيطة بالمنطقة العربية الداخلية ، أي مجموعة الشعوب الخارجية وتشتمل على مصر غرباً وعلى إيران شرقاً وتشتمل أيضاً على بلاد الأناضول شمال المجموعة الداخلية ، ويرى المؤلف أن تاريخ العرب في بلادهم الأساسية وهي شبه الجزيرة العربية يجب أن يبحث مرتبطاً بتاريخ المنطقة العربية السامية وبتاريخ الشرق الأدنى القديم عامة .

وقد أثار المستشرقون قضية الوطن السامي الأول أو مهد الساميين ، ووضعوا فيها العديد من النظريات والآراء التي هدف معظمها إلى الابتعاد عن شبه الجزيرة العربية والتركيز على مواطن أخرى داخل المنطقة العربية السامية

يعرفوا في تاريخهم اللغوي قديماً وحديثاً ما يعرف بالازدواجية اللغوية ، كما لم يشترك معهم أحد في الحياة داخل الجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى احتفاظ اللغة العربية ، بعدد من الخصائص والظواهر اللغوية القديمة ، والتي لا توجد في اللغات السامية الأخرى على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية . مما جعلها حجر الأساس في حل المشكلات اللغوية التي واجهت علماء اللغة على المستوى المقارن داخل المجموعة السامية ، والنتيجة الأساسية التي انتهت إليها دراسات المستشرقين على المستوى اللغوي المقارن تعطي وضعا متميزاً للغة العربية في الدراسات اللغوية السامية المقارنة، حيث احتفظت العربية بأكثر عدد ممكن من الظواهر اللغوية التي اختفت من اللغات السامية الأخرى كما أنها عبّرت دائماً عن صلة قوية باللغة السامية الأم تجعلها أقرب اللغات السامية إليها مما أدى بالعديد من المستشرقين إلى اعتبار العربية أصلاً للغات السامية القديمة واعتبار شبه الجزيرة العربية المهدي الأول للساميين .

* * *

انتقل المؤلف من موضوع اللغة إلى موضوع الأدب فناقش قضية علاقة الأدب العربي القديم بالأدب «السامية» القديمة ، ووضع السامية بين قوسين نظراً لأنها تحمل لديه مفهوماً يختلف عن المفهوم الذي يحاول المستشرقون نشره بين الناس ، فأشار إلى غياب البعد «السامي» في دراسات الأدب العربي القديم ، ويقصد المؤلف هنا عزل الأدب العربي القديم عن بيئته الطبيعية وهي البيئة العربية السامية القديمة، ومحاولة فهم قضايا الأدب العربي القديم فهماً محدوداً داخل بيئتها العربية المحدودة في شبه الجزيرة العربية ، في ظل عزل تاريخ شبه الجزيرة العربية عن تاريخ الشعوب العربية السامية، والهدف بالطبع من الأمرين معاً هو تفتيت وحدة الشعوب السامية وإبعادها عن أصولها العربية القديمة ، وهو هدف ارتبط بالاستعمار الحديث الذي وجّه الاستشراق إلى خدمته من خلال إيجاد نظريات تاريخية حضارية تثبت عزلة شبه الجزيرة العربية وغربتها عن بقية الشعوب

وخارجها . فرأى البعض أن مرتفعات كردستان مهد الساميين ، بينما رأى البعض الآخر أن بلاد النهرين هي المهدي الأول للساميين، ويجعل فريق ثالث من أفريقيا مهدياً للساميين أو من شمال سوريا . وقد وضعت كل هذه الآراء لإبعاد الأنظار عن شبه الجزيرة العربية ، الوطن الحقيقي للساميين الأوائل ، فكل المناطق المذكورة أنفاً سكنتها في الأصل شعوب غير سامية (غير عربية) فيما عدا شبه الجزيرة العربية التي ظلت طوال تاريخها المعروف محافظة على استقلاليتها وعزلتها النسبية ، كما ظلت بعيدة عن أطماع الدول والإمبراطوريات المجاورة ، إذ احتفظت شبه الجزيرة العربية باستقلالها السياسي والحضاري لصعوبة وصول الجيوش الغازية إليها .

ومن ناحية أخرى تمكنت شبه الجزيرة العربية وبوسائل سلمية خالصة من مد نفوذها السكاني والحضاري إلى خارج حدودها . مما أدى إلى إحداث تغير جذري في البنية السكانية لأقاليم الشرق الأدنى القديم ، أدى بالتالي إلى تحول بعض هذه الشعوب إلى شعوب عربية سامية مثلما حدث في بلاد الرافدين وفي أقصى الغرب من الشرق الأدنى القديم حيث الساحل السوري ، ويُعتقد أن العبريين قبل وصولهم إلى أرض كنعان (فلسطين) ، كانوا مجموعة من العشائر السامية البدوية المتنقلة حول المدن العراقية الكبرى مثل أور في جنوب العراق وماري في وسطه وحرّان في شماله .

أما الآراميون فقد عاشوا أصلاً في الصحراء السورية العربية وهي امتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية. ومثلما طوّروا المستشرقون عدة آراء خاصة بالوطن السامي الأول ، كذلك تم تطوير عدة آراء خاصة بلغة أم للساميين بعيداً عن شبه الجزيرة العربية ولغتها العربية، فاتجه المستشرقون إلى اللغة الأكادية لغة الشعب السامي الأولى في بلاد النهرين . واللغة العبرية، بينما تتوافر في اللغة العربية مجموعة من الأدلة والخصائص التي تجعل منها الممثلة الأولى للغة السامية الأم، وأقرب اللغات السامية القديمة إليها ، ذلك لأن اللغة العربية لم تسبقها لغات أخرى في شبه الجزيرة العربية ، كما أن العرب لم

السامية، وتعمل على استئصال جذور الوحدة القديمة بينها وذلك من ضرورة البحث عن مراكز حضارية لشعوب المنطقة السامية بعيداً عن شبه الجزيرة العربية، حيث دافع المستشرقون عن بلاد النهرين كمركز لحضارات الشعوب السامية، والهدف من هذا العزل التاريخي هو إثبات العزلة الحضارية للعرب قبل الإسلام عن البيئة العربية السامية القديمة.

* * *

وتناول المؤلف بالبحث قضايا الأدب العربي القديم في ضوء آداب الشرق الأدنى القديم فناقش قضية تسمية الأدب العربي قبل الإسلام بالأدب الجاهلي، وهو يرى أن التسمية «الأدب العربي القديم» هي التسمية المناسبة، فكل الآداب السامية التي ينتمي إليه الأدب العربي آداب قديمة، انتهى عصرها الأدبي، وفقاً لعامل معين، قد يكون حضارياً أو سياسياً... ولذا فما أنتجه العرب من أدب قبل الإسلام إنما يندرج تحت الإنتاج الأدبي السامي القديم، وإذا أردنا تخصيصه فلنقل «الأدب العربي القديم» كما يقال: الأدب العبري القديم، والأدب السرياني والأدب الآكدي (البابلي والآشوري) إلى غير ذلك من الآداب السامية... والأدب العربي لا بد أن نستخدم معه صفة القديم لأنه لم ينته بظهور الإسلام كما انتهت الآداب السامية الأخرى، ولكنه استقر بفضل استخدام الإسلام للعربية كلغة له، هذا كما أنه على المستوى الأدبي لم يكن العصر المسمى بالجاهلي عصر جهالة أدبية، كما أن كلمة جاهلي تصرف الذهن إلى المعنى الديني، كما أنها لا تعبر تعبيراً حقيقياً عن طبيعة الحياة العربية القديمة التي اشتملت على كثير من الإيجابيات كما اشتملت على كثير من السلبيات.

وناقش المؤلف غياب العامل الأدبي في تقسيم الأدب، والاعتماد على التقسيم الذي ارتبط بعدة عصور مرتبطة بدورها بالتاريخ السياسي للمسلمين، مثل أدب صدر الإسلام. أدب العصر الأموي، أدب العصر العباسي، الأدب العربي الحديث. وهكذا، أو تقسيم الأدب على أساس إقليمي مثل الأدب المصري، والأدب العراقي،

والأدب الأندلسي إلى غير ذلك.

ويرى المؤلف أن نسمي العصر الأدبي السابق للإسلام بالعصر الأدبي السامي، ونسمي الأدب الذي ظهر بعد البعثة النبوية بالأدب الإسلامي، فالأول ظهر في بيئة عربية سامية والثاني ظهر في بيئة عربية إسلامية، ووفقاً للمنظور السامي يرى المؤلف ضرورة وجود عصور أدبية عربية سابقة على العصر الأدبي المسمى بالجاهلي أي قبل الإسلام، ونظراً لأن النظرية السائدة في مجال الدراسات السامية هي نظرية الأصل العربي الأول للساميين ولغات السامية فمن المنطق القول بضرورة الاعتقاد النظري في وجود أدب عربي قديم سابق على الآداب السامية القديمة ويعدّ أصلاً لها، وهكذا يفترض وجود عصر أدب أسطوري يتناسب مع سيادة الأسطورة على الإنتاج الأدبي السامي، والعصر الثاني عصر أدب تاريخي.

والاعتماد على الذاكرة أدى إلى ضياع نصوص الأدب العربي في الفترات السابقة على الإسلام، إلا أن ما يلاحظ من أثر للأدب العربي القديم في آداب الشرق الأدنى القديم يثبت ذلك، وهو ما ناقشه المؤلف تحت عنوان الأثر العربي القديم في آداب الشرق الأدنى القديم، وضرب على ذلك مثالين: ملحمة جلجامش من أدب بلاد النهرين، ومثال آخر من كتاب العهد القديم، ذلك الكتاب الذي لم تُدرك بعد أهميته العربية خاصة في مجال دراسات الأدب العربي القديم، وبالمقابل كتب المؤلف عن أهمية اللغات والآداب السامية كمصدر للتعرف على ملامح حياة العرب قبل الإسلام.

* * *

ينقسم الباب الثاني (الشعوب العربية "السامية") القديمة إلى فصول أربعة عن: العرب في شبه الجزيرة العربية، والعرب وبلاد الحبشة، والعرب وشعوب بلاد ما بين النهرين، وأخيراً العرب وشعوب المنطقة السورية.

في الفصل الأول ألقى المؤلف الضوء على مظاهر التقارب الشديد الذي وُجد قديماً بين الشعوب العربية السامية وغيرها في منطقة الشرق الأدنى القديم ومنها التشابه في اللغات التي تحدثت بها هذه الشعوب، ووحدة

الذي ساد معظم مناطق الشرق الأدنى القديم ، ويتضح من هذا النظام ، ارتباط ديانة اليمن بالديانة العربية السامية القديمة بشكل عام في أكثر من مظهر .

فيما يتعلق بالفصل الخاص بالعرب وبلاد الحبشة أوضح المؤلف أن التأثير العربي لم يقف عند حدود الشرق الأدنى القديم بل تجاوزه إلى خارجه ، مما جعل الساحل الشرقي لأفريقيا يحمل الثقافة العربية مما أدى إلى ظهور دول عربية الثقافة في هذه المنطقة من قارة أفريقيا ، وتعدّ الحبشة من أهم البلدان الأفريقية المتأثرة بالثقافة العربية في نشأتها وتكوينها ، وأكبر دليل هو أن اسم الحبشة مأخوذ من قبيلة (حبشت) اليمنية ، كما أن اللغة الحبشية القديمة أخذت اسمها من اسم قبائل الجعر السامية العربية اليمنية ، أما التسمية أثيوبيا فقد وردت في التوراة وأطلقها اليونان على سكان الحبشة وتعني «الوجه المحترق» وهي تطلق على البلاد المتاخمة لحدود مصر الجنوبية ، وأكد بعض العلماء على الأصول العربية للأحباش ، ولم تتوقف علاقات الحبشة باليمن عند حدود التجارة والاقتصاد فقد تشابكت العلاقات الدينية والثقافية بين البلدين إلى حد الدخول في صراع للأديان الموجودة ، اختلطت فيه الأسباب الدينية بالدوافع الاقتصادية والسياسية .

ومن الصعب تحديد بداية حركة الهجرة العربية إلى الحبشة قبل الإسلام ، فالحركة انصفت عبر التاريخ بالاستمرارية والهجرات العربية إلى الحبشة كانت جزءاً من حركة الهجرات الخارجية من شبه الجزيرة العربية إلى البلدان المحيطة وبخاصة إلى بلاد ما بين النهرين والمنطقة السورية ووادي النيل .

أما عن الوضع الديني فتاريخ الحبشة الديني يشبه إلى حد بعيد تاريخ فلسطين الديني ، ويقترب أيضاً من الوضع الديني في اليمن في الفترة السابقة على ظهور الإسلام ، وبعد ظهوره مباشرة ، فالحبشة عرفت في تاريخها القديم الحضارة العربية السامية ، التي نشأت بفعل الهجرات العربية المتوالية إليها ، والتي كان لها دورها في التكوين العرقي والثقافي للأحباش ، وهذا الأمر

التاريخ ، والاشتراك في منطقة جغرافية واحدة وبيئة حضارية متقاربة نتج عنها حوار ديني متقارب أسهم في تطوير فكر ديني متشابه إلى حد كبير .

ويؤكد المؤلف على أن أبحاث علماء الحضارات السامية دلت على أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للحضارات السامية ، وهي الأصل الذي خرجت منه الشعوب العربية السامية ، ومنه أيضاً تطورت اللغات السامية التي تعدّ حسب هذا الرأي لهجات متفرعة عن اللغة العربية ، تطورت إلى أن استقلت وأصبحت لغات قائمة بذاتها ؛ ومن الناحية الدينية حفظت الحياة العربية قبل الإسلام بعض المظاهر التي تعدّ عامة بالنسبة للساميين القدماء ، ونظراً لظروف الصحراء لم يكن من الممكن إقامة نظام ديني مركب فقد ظلت الأوضاع الدينية بسيطة بساطة الحياة في الصحراء . ويبدو أن الجزيرة عرفت أول ما عرفت ديانة التوحيد حين سكن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام مكة ، وكانت الصيغة الأولى لديانة العرب صيغة توحيدية ، ثم حدث أن نسي العرب دين التوحيد إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فبدأوا يقدسون الحجارة لذاتها وفاتهم أنها رموز للحرم .. وعرف العرب اليهودية والنصرانية ، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ، وكان منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوءة ، إذ عرفت الجزيرة العربية بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية نوعاً من التوحيد الفطري ، ووجد بعض الأفراد الذين آمنوا بعقيدة الإله الواحد ، ولم يشتركوا في عبادة الأصنام والأوثان التي عبدها بقية العرب .

أفرد المؤلف صفحات تحدث فيها بالتفصيل عن الأوضاع السياسية والدينية في جنوب شبه الجزيرة العربية ، فأشار إلى الدول التي ظهرت في الألف الثاني والأول قبل الميلاد مثل معين وسبأ وقتبان وحضرموت وغيرها ، وأشار أيضاً إلى النقوش والكتابات التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية ، وعرفت باسم الكتابات العربية الجنوبية القديمة ، وما تفرع عنها من خطوط مثل الخط الحبشي والخط اللحياني والثمودي والصفوي .

أما عن الديانة فقد عرفت اليمن نظام تعدد الآلهة

نفسه ينطبق على فلسطين .

وجاءت الثقافة الإسرائيلية لتشكل عنصراً ثقافياً دينياً للحبشة في تاريخها القديم ، بعد أن استوطنت في الحبشة عناصر يهودية ، وذلك بعد هجرات الساميين العرب إليها ، وقد اندمجت العناصر اليهودية مع مرور الزمن في العناصر الحامية والإفريقية ، وأثروا فيها ، كما تأثروا بها . وفي بداية القرن الرابع تدخل المسيحية الحبشة ، ومنذ ذلك الحين ينتاب تاريخ الحبشة غموض شديد ، وفي القرن السادس الميلادي يظهر اليهود من جديد كقوة في اليمن تضطهد نصارى اليمن ، وتمكن اليهود من فرض سيادتهم على اليمن في الفترة السابقة على ظهور الإسلام .

أما عن اللغة الحبشية فيذكر المؤلف أنها لغة سامية خالصة في أصلها وجوهرها ، تم زرعها في الأرض الحبشية بواسطة المهاجرين العرب من اليمن إلى الحبشة ، وهي تحمل طابعاً عربياً سامياً في أصواتها وقوانينها الصوتية ، وفي جذورها وتراكيبها ، وفي كل ما يعد من بنية اللغة وجوهرها ... أما علاقة اللغة الحبشية باللغة العربية فهي علاقة قوية تفوق علاقتها ببقية اللغات السامية ، وقد احتفظت اللغة الحبشية ببقايا للإعراب وضحت صلتها القوية باللغة العربية .

* * *

انتقل المؤلف بعد هذا إلى مناقشة موضوع العرب وشعوب بلاد ما بين النهرين ، وهنا يذكر أن أقدم الهجرات العربية السامية إلى أرض الرافدين تعود إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتعد أقدم الهجرات العربية السامية على الإطلاق ، ومع بداية العصر التاريخي في منطقة ما بين النهرين حوالي ٣٠٠٠ ق . م كان للساميين العرب والسومريين وجود مشترك في المنطقة .

وتمثل اللغة الأكديّة الفرع الشمالي الشرقي من أسرة اللغات العربية السامية القديمة ، ومع هجرات الأقوام الأكديّة والبابليّة (الأمورية) والآشورية إلى وادي الرافدين انتشرت اللهجات العربية التي تطورت إلى لغات مستقلة عن أصلها العربي الأول ، واشتركت معاً في مجموعة خصائص لغوية تشير إلى أصلها الواحد .

والديانة في منطقة ما بين النهرين ديانة طبيعية كغيرها من ديانات الشرق الأدنى القديم ، تقوم على أساس عبادة القوى الكونية التي تتحكم في خصوبة الأرض في بيئة زراعية ، وإلى جانب الاعتقاد في تعدد الآلهة وفي اتحادها أحياناً في شخص إله واحد ، انتشرت في بلاد ما بين النهرين بعض المظاهر الدينية التي تعدّ بشكل عام جزءاً من مظاهر الديانة السامية القديمة . وقد ظهر تأثير الدين على ما أنتجه البابليون والآشوريون من تراث أدبي وفني ، نظراً لأن الدين طبع الحياة البابلية الآشورية بطابعه ، ومن ناحية أخرى تعدّ حضارة ما بين النهرين من أغنى الحضارات العربية السامية القديمة في تراثها الأسطوري ، وربما كان السبب في ذلك أن معظم الأساطير البابلية الآشورية هي في الأصل أساطير سومرية ورثها البابليون والآشوريون وطوروها دون تغيير . ثم ناقش المؤلف بعد ذلك موضوع العرب وشعوب المنطقة السورية واتبع في هذا منهجاً موحداً فهو يناقش بداية الوضع السياسي فالوضع الديني وأخيراً الوضع الحضاري ، وقد يناقش الوضع اللغوي ، بينما فصل الحديث أكثر فيما يتعلق بالعبريين ثم الفلسطينيين .

فيما يتعلق بالكنعانيين ذكر المؤلف أنهم عاشوا في المنطقة المطلة على البحر المتوسط من ناحية ، وعلى الصحراء من ناحية أخرى ، فكانوا حلقة اتصال في أوقات السلم ، ومركزاً تلتقي عنده الطرق المؤدية إلى ثلاث قارات ، وقد ضمت هذه المنطقة سوريا وفلسطين ولبنان وعاشت فيها شعوب مختلفة من بينها الكنعانيون والآراميون والفلسطينيون والعبريون وغيرهم ، ومن الجماعات البارزة التي كوّن سكان هذه المنطقة الجماعة القادمة إليها من الصحراء ، والتي قامت بدور مهم في التكوين الجنسي لشعوب المنطقة ، وفي الأحداث التاريخية ولأن العنصر القادم من الصحراء عنصر عربي سامي بطبيعة الحال ، والكنعانيون من أهم الشعوب التي نشأت وعاشت في هذه المنطقة قديماً ، وعلى الرغم من وجود عناصر أجنبية غير السامية في المنطقة ، إلا أن التأثير العربي السامي ظل قوياً بل طبع الحياة الكنعانية بطابعه الخاص ، فظلت

الأكدية والكنعانية والعبرية ، وانتشر الخط الآرامي انتشاراً واسعاً ، وهو في الأصل مأخوذ من الخط الكنعاني ، وتطور الخط العبري والخط الآشوري المربع من الخط الآرامي بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وكذلك تطور الخط النبطي الذي تطور بدوره عن الخط العبري ، كما تعود الخطوط الآرامية والفارسية والهندية إلى أصول آرامية - كما تطور عنه الخط السامري والتدمري والنبطي الذي نشأ عنه الخط الحميري العربي ، ومنه تولد الخط الكوفي ، ومنه خط النسخ ، وبسبب اتساع الآرامية تعددت لهجاتها وغطت مساحة واسعة من الأقاليم ، فهناك آرامية شرقية وأرامية غربية ، وانقسمت بدورها إلى لهجات ، ويذكر المؤلف أنه لسهولة الأبجدية الآرامية المشتقة من الفينيقية وسهولة النحو الآرامي استعمل الآشوريين والأخمينيون الفرس الآرامية في إدارتهم وحولوا الآرامية إلى لغات عامة للشرق الأدنى القديم .

أما العبريون فتعود نشأتهم في تاريخ الشرق الأدنى القديم إلى الهجرات العربية ، في شبه الجزيرة العربية إلى المنطقة السورية وبخاصة إلى فلسطين الواقعة إلى الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية ، وقد استخدمت تسميات للتعريف بهذه الجماعة منها عبري ، ومنها إسرائيلي ، ومنها يهودي ، ويذكر المؤلف أنه يجب التفرقة بين هذه التسميات المتعددة للجماعة نفسها بناء على الأسس التاريخية والجغرافية والدينية ، فالاسم عبري هو أقدم هذه التسميات ، ويطلق على الشعب الذي نزح مع الهجرات العربية القديمة من قلب الصحراء إلى الأجزاء الشمالية من منطقة الشرق الأدنى ، واستقر في منطقة فلسطين ، والاسم إسرائيلي هو اللفظ الأكثر استخداماً بعد زوال الاسم عبري ، ويعود إلى زمن يعقوب عليه السلام ، ويخص نسله ، ويستبعد العرب وغيرهم ، والاسم إسرائيلي + يهودي ، مسمى سياسي جغرافي للإسرائيليين بعد انقسام المملكة إلى مملكتين : إسرائيل الشمالية ويهوذا الجنوبية ، والاسم يهود اسم جنس يطلق على الإسرائيليين شماليين وجنوبيين بعد انتهاء الوجود السياسي لبني إسرائيل ، وأصبحت الديانة تعرف أيضاً

الأحوال الاجتماعية والحضارية ، أقرب إلى أحوال العرب الساميين ، وبخاصة القادمين من الصحراء الذين احتفظوا بالتقاليد العربية السامية الأصلية .

ويشير المؤلف إلى أن الديانة الكنعانية قد سبقت ظهور الفكر الديني الإسرائيلي في منطقة فلسطين ، فقد تركت هذه الديانة بعض الآثار على الديانة الإسرائيلية بعد استقرار القبائل الإسرائيلية في المنطقة ، وبانتهاء النظام القبلي بالتدريج اندمج أفراد القبائل المختلفة في اتحاد إقليمي يضم جميع القبائل مما أدى إلى اختلاط الإسرائيليين بالكنعانيين ، كما استقر الإسرائيليون في بعض المدن الكنعانية .

ورغم فشل الكنعانيين في تكوين قوة سياسية إلا أنهم من الناحية الحضارية تركوا أثرهم الواضح على شعوب منطقة الشرق الأدنى القديم ، فإليهم يرجع تأسيس حضارة فلسطين القديمة ، التي على أساسها تطورت الحضارات التالية ومن الناحية اللغوية تعد الكنعانية في رأي كثير من علماء اللغات السامية أقرب للغات إلى اللغة السامية الأم وهي اللغة العربية القديمة التي تحدثت بها الجماعات القادمة من قلب الجزيرة العربية ، ومنها تطورت مجموعة اللهجات التي كانت الكنعانية إحداها .

* * *

أما الآراميون فتعود نشأتهم إلى موجات الهجرة العربية من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد النهرين حيث استقروا في حرّان ، منطقة الفرات الأوسط ، ثم هاجروا إلى المنطقة السورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وأسسوا مستعمرات حضرية تحولت إلى ممالك متحاربة فيما بينها ، وتشير الأخبار الواردة في التوراة والمصادر الأخرى إلى قدم الآراميين من ناحية وصلتهم القوية بالكنعانيين وبالعبريين ، كما تشير إلى أصلهم العربي .

ورغم أن الآراميين لم ينتشروا على المستوى السياسي إلا أن لغتهم الآرامية انتشرت في مناطق واسعة بفضل نشاطهم التجاري الواسع الذي غطى معظم بلدان الشرق الأدنى القديم ، وغلبت الآرامية اللغات الآشورية والبابلية والفارسية ، وكان لها دور كبير في القضاء على

وكان أخطر مظاهر هذه الردة محاولة تخصيص رسالة التوحيد في اليهودية وجعلها مقصورة على الشعب الإسرائيلي إذ لم يحاول اليهود بذل أي جهد في سبيل نشر عقيدة التوحيد بين جيرانهم .

وهكذا دخلت اليهودية في مرحلة انغلاق على نفسها فمُنعت التبشير بالتوحيد للبشرية وجعلته قاصراً على اليهود كما ربطت العقيدة بالأرض، وجعلت الخلاص خاصاً باليهود دون البشرية وفي هذا كله ابتعدت اليهودية عن روح الديانة التوحيدية الحقّة .

* * *

ونأتي إلى المبحث الأخير وهو خاص بالفلسطينيين وفيه أوضح المؤلف إهمال المؤرخين الغربيين المتخصصين في الشرق الأدنى القديم وحضارته للتاريخ الفلسطيني القديم ، فقد عمسد المؤرخون إلى إهمال وضع فصل خاص للفلسطينيين في شكل عمل مستقل، وهذا الإهمال مقصود لذاته بسبب سيطرة المؤرخين اليهود في البداية على مجال الكتابة التاريخية عن فلسطين ، ولذلك أخرجوا الشعب الفلسطيني القديم من دائرة البحث كشعب من شعوب الشرق الأدنى القديم مع التركيز على دراسة تاريخ العبريين، وذلك لتأصيل الوجود اليهودي في فلسطين واستبعاد كل الشعوب الأخرى التي شاركت العبريين في فلسطين .

وفي التعريف بفلسطين والفلسطينيين في المصادر اليهودية نجد تعطيماً شديداً وإيهاماً بأن الفلسطينيين شعب غريب ليست له أصول في المنطقة . والمعروف أن تاريخ فلسطين ارتبط ارتباطاً عضوياً بتاريخ المنطقة المحيطة بفلسطين من الجنوب والشمال والشرق والغرب وتشكلت البنية السكانية لمنطقة فلسطين بتأثير من الأوضاع السياسية والوضع الجغرافي الذي جعل من فلسطين هدفاً دائماً للهجرة والغزو .

وقد هاجر إليها القادمون من شبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص، وذلك لقرب فلسطين من شبه الجزيرة العربية واعتبار فلسطين امتداداً شمالياً غربياً للصحراء العربية ، كما أنها من مناطق الجذب بالنسبة لسكان شبه الجزيرة العربية ، ويوصفها جزءاً من المنطقة السورية .

باليهودية ، وإسرائيل : اسم يطلق بعد قيام إسرائيل على اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين بعد ظهور دولة إسرائيل ولا يطلق هذا الاسم على كل اليهود، فقد أصبح للاسم دلالة جغرافية سياسية للدولة وليس اسماً لكل الشعب اليهودي .

وعن الوضع السياسي يذكر المؤلف أن العبريين لم يستطيعوا عبر تاريخهم القديم أن يكونوا قوة سياسية ذات أثر يذكر في تاريخ الشرق الأدنى القديم إلا أن الجماعة العبرية ظلت محافظة على كيانها بفضل تماسكها الديني «وقد ساعدت طبيعة الديانة العبرية القديمة على هذا ، فقد ربطت بين الشعب والدين في عهد لا يمكن التخلص منه في سهولة» ويتلخص التاريخ العبري في ارتباطه بالدين والعقيدة إلى : مرحلة الآباء وهي أقدم المراحل ، تليها مرحلة الخروج من مصر، ثم مرحلة الوحي في سيناء وإعطاء التوراة وبناء الحياة الاجتماعية لليهود وهذه المرحلة مكملّة للمرحلة السابقة عليها، والمرحلة الرابعة هي مرحلة دخول كنعان التي ارتبط فيها لتفكير الديني بالتفكير العسكري .

وتمكن العبريون من إنشاء أول مملكة عبرية في التاريخ الإسرائيلي : المملكة الداوودية حيث توحدت كل القبائل الإسرائيلية وتم الاستيطان الإسرائيلي الكامل لكل كنعان .

كانت اليهودية في مرحلتها الأولى نهاية لعصر ديني وبداية لعصر ديني جديد ، فهي نهاية للفكر الديني الأسطوري القديم وبداية لمرحلة دينية يؤدي فيها العقل الدور الرئيس في الربط بين الإنسان والإله .

وقد طرأت على الديانة اليهودية بعض التغييرات التي أثرت على هذه النظرية العالمية للدين ، وسببت ما يمكن تسميته بالردة أو النكسة الدينية التي عادت ببعض الصفات الدينية التي كانت اليهودية قد خلصت الدين منها سابقاً ، والتي تسببت فيما بعد في ظهور حركة إصلاح دينية من داخل اليهودية نفسها ، تقابلها حركة إصلاح خارجية تبلورت في ظهور الديانة المسيحية ثم الديانة الإسلامية لإصلاح مسار الفكر الديني التوحيدي وإعادته إلى نقائه .

وهكذا وصل المؤلف إلى نتائج مهمة في كتابه القيم ، فهو متخصص في تاريخ المنطقة وحضارتها وفي لغاتها أيضاً وقد أثبت في كتابه أن الشعب العربي في شبه الجزيرة العربية هو الشعب الوحيد الذي تتوافر فيه المواصفات المطلوبة للشعب المحور تاريخاً وحضارة ، فبدون العرب لا نقيم للسامية قائمة وما الساميون إلا العرب أنفسهم ، ولذلك فمن الخطأ استخدام مصطلح السامية و"الساميون" واللغات السامية وغيرها من المصطلحات والتعبيرات المشابهة، والأولى أن نقول العروبة والعرب واللغات القديمة والشعوب العربية القديمة، والعرب هم الشعب الأصلي الأول الذي لم يسبقه شعب آخر في شبه الجزيرة العربية فهو غير وافد إلى المنطقة بينما تعد بقية شعوب المنطقة الداخلية شعوباً غير أصلية ووافدة ومقرها الرئيس الذي أتت منه هو شبه الجزيرة العربية لذلك يعود إلى شبه الجزيرة العربية فضل تكوين الشعوب العربية (السامية) وتكوين اللغات العربية (السامية) وأيضاً تكوين العقلية العربية (السامية) كعقلية متميزة عن العقليات الأخرى في العالم القديم .

ومع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وانتشاره في كل الشرق الأدنى القديم تعود السيادة العربية على الشرق الأدنى القديم على المستويات الدينية واللغوية والجنسية والثقافية والحضارية ، إذ كان انتشار الإسلام في بلدان الشرق الأدنى القديم بسبب خصائص الدين الإسلامي من ناحية وبسبب كون بيئة الشرق الأدنى القديم بيئة عربية ذات قاعدة ثقافية عربية مما مهد لانطلاق الإسلام في مناطق الشرق الأدنى القديم ، ومنه إلى قارات العالم القديم. كانت هذه هي رؤية المؤلف ، رؤية عربية إسلامية جديرة بالاهتمام من جانب المؤرخين العرب والمسلمين الذين يهدفون إلى مراجعة كتابة التاريخ العربي الإسلامي من جديد وعلى أسس صحيحة ومن وجهة نظر عربية سليمة .

احتل الفلسطينيون المدن الكنعانية واستقروا بها أو دمروها وبنوا مدناً جديدة على أنقاضها ، واندمجوا في الكنعانيين ، وورثوا جزءاً من ثقافتهم ، ويعتقد أن بعضهم استقر في الساحل الفلسطيني ، الذي أعطي اسم فلسطين بواسطة الإسرائيليين ، ورغم أن مناطق الفلسطينيين كانت محدودة ، والمدن المنسوبة إليهم كانت معروفة إلا أن سيادتهم السياسية امتدت إلى مساحة أوسع وعاشوا جنباً إلى جنب مع الكنعانيين والإسرائيليين الذين شاركوهم في سكنى فلسطين ، وقد وردت التسمية «الفلسطينيون» في التوراة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين . وورد ذكر «أرض الفلسطينيين» وتعطي التوراة أدلة قوية على الوجود المبكر للفلسطينيين ، ويروي الإصحاح الرابع من سفر القضاة سيطرة الفلسطينيين على بني إسرائيل ، وبعض علاقاتهم الاجتماعية بهم ، كما يشير العهد القديم كمصدر مهم من مصادر تاريخ فلسطين القديم إلى الوجود الفلسطيني القوي، وربما يكون لجوء داود عليه السلام إلى الفلسطينيين هرباً من مطاردة شاول له أكبر دليل على مكانة الفلسطينيين ودورهم السياسي في النزاعات الإسرائيلية الداخلية بين بيت شاول وبيت داود . وهكذا شكل الفلسطينيون طرفاً سياسياً في العلاقات الإسرائيلية .

ويؤكد المؤلف على الوجود الفلسطيني حين يذكر أن حركة الهجرة من شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين لم تتوقف لأن أسبابها لم تنته ، وهي الهجرة التي دعمت الوجود الفلسطيني العربي في مقابل عمليات الخروج المستمرة للإسرائيليين من فلسطين لأسباب متنوعة . ويؤكد المؤلف أيضاً في نهاية هذا الفصل ونهاية الباب الثاني ونهاية الكتاب على أن تاريخ فلسطين القديم يحتاج إلى اهتمام شديد من الدارسين العرب ، فهو تاريخ يكتب من مصادر يهودية ولا توجد مصادر عربية تُغني الباحث عن العودة إلى المصادر اليهودية ، وتشكل رؤية عربية لتاريخ فلسطين وهي الرؤية التي نحتاج إليها في نظرتنا إلى تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته .

* * *